

١. مع مواكب الحضارة

إن تاريخ الحضارة يبدأ مع العرب . فجنة عدن - وفقاً
للكتاب المقدس - تمدها أربعة أنهار هي الفرات ، ودجلة ،
والنيل . أما النهر الرابع فلا يزال الى اليوم مستعصياً على التحديد .
ولكن ثمة شكاً قليلاً في ان كلمة « عَدْن » هي تحريف للكلمة
السومرية « عدينو » ، وتعني المرج الواسع ، او السهل .

وفيما كانت مصر تناضل ، ما تزال ، من اجل توحيد النيلين
وإنشاء حضارة ما برحت تسحب ذيولاً من المجد الفرعوني ، كانت
« أريدو » و « عكر قوف » السومريتان مدينتين كبيرتين
زاهرتين . وإذ كان نهر الفرات ودجلة يلتقيان شمالي « أور »
ويشكلان نقطة اتصال اخذت فيضاناتها السنوية تدفع بالذلتا في
اتجاه الخليج الفارسي بنسبة نحو من مئتي ياردة كل عام ، فقد
نشأت مدن جديدة حول الارض الحصبة ، وغدت ممالك سومر
المدينية غنية قوية ، ومن ثم ، متبلدة كسولاً .

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً عن أولية السومريين . ولكن الشيء
الثابت انهم كانوا غير ساميين . وكانت ارضهم تنبسط ما بين ضفاف
دجلة والفرات وعلى طولها . والواقع انهم كانوا ينعمون في « عَدْنهم »

تلك عندما برزت اول موجة من موجات الساميين المهاجرين خارج اسوار مدنهم . وما هي الا فتوة حتى استولى الرعاة الساميون على سومر ، كما استولوا على فلسطين ، وورثوا عن السومريين اشياء كثيرة منها القناطر والعقود المعيارية والعربات ذوات العجلات .

وحوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . قاد الزعيم السامي ، سرجون الاول ، قواته لقتال السومريين وسحق فيالقهم في سلسلة من المعارك تركت العرب * سادة على البلاد التي انتهت في ما بعد الى ان تصبح « بابل » . وثبتت « نارام سين » ، حفيد سرجون الاول ، هذا الفتح . واشرقت شمس الحضارة العربية التي لا تزال معنا على الرغم من احتجائها اربعة قرون .

واذا كنا نجهد اصل الشعب الذي سكن سومر ، فكذلك نجهد اصل العرق السامي ، على وجه الدقة . فهناك من يقول ان « ابنا سام » هؤلاء قد نشأوا ، اول ما نشأوا ، بين حامي افريقية الشرقية ، ثم انتقلوا الى شبه الجزيرة العربية من طريق باب المندب . وهناك من يقول ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي . والرأي الثاني ارجح . **

وسواء اقدم الساميون من افريقية او من تلال سبأ فقد

* من الواضح ان المؤلف يقصد بالعرب هنا الساميين . ولعله يعتبر الساميين كلهم عرباً على اعتبار انهم انطلقوا من شبه جزيرة العرب . [المغرب]
** تصرفنا في ترجمة هذه الفقرة على اساس من المصادر التاريخية الموثوقة بسبب من اضطراب الاصل . [المغرب]

انتشروا في داخل الجزيرة من زاويتها الجنوبية الشرقية التي تشكل اليوم مملكة اليمن . ويغلب على الظن ان خط الهجرة كانت تمتد بمحاذاة النجاة المتاخمة للبحر الاحمر . تلك كانت طريق القوافل القديمة من الصين والهند ، والسبيل الوحيدة التي تمتاز ارضها بقابليتها للزراعة ، وبأنها تنبت عشباً تأكله الجمال والحمير والاعنام التي تؤلف الى اليوم عماد الحياة الاقتصادية عند البدو ، أو عرب الصحراء .

وينبغي ان تكون القبائل السامية المنتشرة في الارض قد انحرفت - عند موقعي مكة والمدينة الحاليين - في اتجاه الشرق والشمال الشرقي ، عبر السهوب الوسطى وعبر أودية الجبال ، نحو الخليج الفارسي . في حين اتجهت قبائل أخرى نحو ذلك الصّدع الجيولوجي الهائل الذي ينتظم البحر الميت ووادي الاردن الذي يُعرف اليوم بوادي عربة .

وفترة التوسع هذه من هضاب اليمن الى « فلسطين » التي حرتفها الرومان الى « فلسطين » استغرقت - من غير شك - نحواً من ألف سنة كاملة . وفي وقت ما من هذه الفترة الألفية انفصل اسلاف اليهود ، في ما يبدو ، عن الجذر السامي . ولسنا ندري السبب الذي ادى الى هذا الانشقاق ، وارجح التعليلات لهذا الحدث ان العبرانيين كانوا اقل ميلاً الى التحضر والاستقرار من سائر العرب فهم يعمنون في الترحل مع مواشيهم ، وأقل انصياعاً للمواضع التي تنشأ دائماً مع البيت والعمران البشري . وهكذا عبر هؤلاء المهاجرون المغامرون ، المتمردون ، شبه جزيرة سيناء الى مصر

حيث ترك اثرهم في النظام المصري الاجتماعي طابعه على التاريخ .
وقبل ابراهيم ، الأكدى الأوري ، بفترة طويلة هبط الرعاة
العبرانيون دلتا النيل الحصبية واخرجوا الفلاحين المصريين منها .
ولم تكن مصر آنذاك دولة قوية . فبعد أسرة « آختوي » التي
حكمت البلاد حكماً ضعيفاً من سنة ٢٢٧٠ الى سنة ٢٢٢٢ ق.م
عرفت مصر عهداً من الحروب الداخلية اشاع فيها الفوضى وحرمتها
من حكومة مركزية قوية . وقد نتج عن ذلك ان اجتاح الغزاة
الساميون المدن القائمة في دلتا النيل ، وخضعت مصر نفسها لسلطانهم
عندما بدأ حكم الهكسوس (الملوك الرعاة) وخلفاؤهم الذي دام
خمسة عام .

ولم يكن ليحيط بهم ، بادىء الامر ، شيء من أهبة الملك
وجلاله . وقد قال المؤرخان المصريان « إيبووار » و « مانيشو »
إنهم سوقوا أخسة سدوا منافذ الشوارع وافسدوا لغة مصر .
وأياً ما كان فقد استولى هؤلاء السوقة على زمام السلطة المدنية ،
ونهبوا الاغنياء واخرجوهم من بيوتهم . ثم إن انهيار البنية
الاجتماعية كلها وموجات طامية من المجاعة أكمل عمل الغزاة ، فلم
يجدوا ، حين أقاموا عاصمتهم في ممفيس ، آخر الامر ، غير مقاومة
ضئيلة . وفرض ممثلون لست أسرى حاكمة سلطانهم على نواح من
مصر مختلفة قبل أن توفق قوات مصر الجنوبية الى اخراج الهكسوس
من البلاد . ويذكر المؤرخ اليهودي يوسفوس ان جيش الهكسوس
طورد على محاذاة البحر الاحمر ، قرب البحيرات المرة في اغلب
الظن حيث كانت المياه ضحلة ، وإلى سيناء . وينص هذا المصدر

على ان عدد افراد ذلك الجيش المنهزم بلغ مئتين واربعين ألف رجل ، وأنهم «استقروا في بيت المقدس وأسسوا مملكة يهوذا .»
ويحسب بعض المؤرخين ان هذا الجلاء الأجماعي هو الاصل لقصة خروج بني اسرائيل من مصر كما وردت في الكتاب المقدس . في حين يُنكر بعضهم الآخر ذلك . وأياً ما كان فقد خضعت بيت المقدس (اوروشليم - اوروشالاييمو) وغيرها من المدن الفلسطينية او الكنعانية لسلطان اليهود حوالي سنة ١٤٠٠ ق م . وهو تاريخ يكاد يتفق وظهور دعوة إخناتون الوجدانية في مصر . وليس ينبغي ان يُظن ان هذا الجيش المفكك المهزوم المطرود الى صحارى سيناء وجبالها شن غارة مباشرة ومظفرة على ارض كنعان . فلعلّ قرناً كاملاً من الزمان انقضى قبل ان يوفق حفدة ملوك الرعاة هؤلاء الى ان ينتمروا الى ارض اللبن والعسل ، ليجدوها قوية حصينة ، وليقرروا الاقامة خارج اسوارها في انتظار الفرصة السانحة .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان طوقت قوة من المصريين المستعمرات العبرانية وأسرت اهلها ، انتهت المبادئ الدينية الجديدة القائلة بالآه واحد وبتساوي الارواح في عالم آخر ، الى شعب كان يكره تقديس «الابعال» المحليين في كنعان كرهاً طبيعياً ، فاذا هو على أتم ما يكون من الاستعداد لقبول دين يجهد المعبودات الحرقاء الثقيلة الوطأة وينكر ان تكون للاغنياء أما ميزة عملي الفقراء ، بعد الموت . وجائز ان يكون الدين اليهودي ، وهو دين عملي بأكثر مما ينبغي بالنسبة الى شعب مترحل ، قد نشأ عن هذه

العقيدة المصرية. والشيء الذي لا ريب فيه أن مزامير داود وترانيم
اخناتون تتشابه تشامهاً كبيراً جداً. وفي كتابه «فجر الضمير» قدّم
الدكتور جيمس بريستد ترجمات متوازية تؤكّد هذا الاحتمال .
وهكذا ففي مستهلّ القرن الثالث عشر ق.م. كان العبرانيون
قد مكثوا لأنفسهم في ارض كنعان ، فيما بلغت الحضارة العربية
في بابل (باب الاله) اوج مجدها وشرعت تنحدر بعض الشيء .
وكان عهد حمورابي الملك الأموري (١٩٤٨ - ١٩٠٥ ق.م.) قد
اعطى القوم شرائع شهيرة ، وعُني بأعادة التحرير ، ودشن
بزناً لجأ للري جعل من الطرف البابلي من الهلال الحصيد الجزء
الاكثر غنى وإخصاباً من نصف الدائرة العربية كلها التي تؤلف
غياض فلسطين طرفها الاقصى الآخر . ومن نواح كثيرة كانت
بابل حمورابي مدينةً عصريةً الى حد يثير الدهش . فقد كانت المدينة
تنبسط في محاذاة الفرات العظيم وقد نهض « شارع المواكب »
العريض على موازاة النهر تحيط به ابنية ضخمة عالية تتوّج الجناح
والاشجار كثيراً منها .

وكان «باب عشروت» الحصن الذي تحميه سلسلة من الاسوار
مزخرفاً منوّناً ومحليّ بنقوش رائعة تمثل ضرباً من الحيوان .
وكان هيكلاً مردوخ العظيم ، المعروف ببورج بابل ، يرتفع فخماً
جليلاً في « الحّي المقدس » في الطرف الجنوبي من العاصمة . وكان
يصلها ببابل الغربية ، وهي ضاحية تقع وراء النهر ، جسرٌ لا
تزال دعائمه راسخةً في اعماق النهر . وفي فترة متأخرة كانت ثمة
طريق تمتد تحت الارض على طراز « نفق لنكولن » أنشئت على

ما يظهر في عهد الملكة سميراميس نصف الاسطوري . وليس من ريب في انها كانت عملاً رائعاً من اعمال الهندسة لأن تدفق الفرات وعمقه يجعلان منه نهراً اعلى واخطر من نهر الهدسون في نيويورك . حتى اذا حكم الكلدانيون بابل تقلصت رقعتها تقلصاً كبيراً بسبب من غارات الحيثيين والأشوريين عليها . لقد ظلت سامية ولكن حكامها الآن كانوا جماعة من التجار . والواقع ان مآثر بابل الثانية هذه في ميدان الحضارة كانت لغوية وعلمية . ففي ظل الكلدانيين حلت اللغة الآرامية محلّ العبرية حتى لقد استعملها اليهود انفسهم في معاملاتهم اليومية ، وولدت الأيجدية . واصطنع العلماء الكلدانيون المعارف الفلكية التي ورثوها عن كهان مردوخ وعشتروت ، إله الشمس وإلهة القمر ، لكي يحسبوا سير النجوم ويخترعوا نظاماً جديداً للكشف عن المستقبل عُرف آخر الأمر بعلم التنجيم .

وفيما كانت بابل الكلدانية - وقد غدت الآن طوال خمسة قرون مرزبانيةً فارسية - تعبد آلهتها وتقيم علاقات تجارية مع الهند والاراضي الواقعة وراء البحار الشرقية ، ومع مصر ، ومع اليونان والبلدان الخاضعة لرومة ، كان اليهود يقيمون في يهوذا حياة قلقة مضطربة . فقد كانت المملكة القصيرة الأجل التي نحتها يشوع من عرب فلسطين ومكّن لها الملك داود قد انقسمت على نفسها بعد موت الملك سليمان ، وغرقت البلاد في بحر من الدماء بسبب من الحروب الاهلية المهلكة ، والغارات الخارجية ، وكانت آخرها تلك التي شنتها كتائب رومة . وقاوم العبرانيون ، ولكن

مقاومة غير كافية ، وبسطت رومة سلطتها على فلسطين باستثناء بعض الحصون الطبيعية التي لا تقهر من مثل مدينة البتراء النبطية (العربية) وغيرها .

وأستهل التاريخ المسيحي في اعقاب قرنين اثنين من حروب العصابات ايضاً . ذلك أن ما يُعرف بالحروب المكابية لم يكن اكثر من سلسلة من الغارات الطارئة شنتها على المدن الخاضعة لاحتلال الرومان عصابات مسلحة من متعصي اليهود . والحق ان هؤلاء المسلحين أذكوا هستيريا العصر الجماعية ، وبخاصة في ما بين اليهود ، بما قاموا به من غارات ليلية لا تعرف الرحمة أو الاستبقاء ، على المدن ، وعلى خزائن الدولة ، ودار الصناعة (مصانع السلاح أو مستودعاته) ، ومن اضرام النار في البيوت ، وذبح « المتعاونين » . ثم الانكفاء تحت جناح الظلام . وأياً ما كان ، فقد وفق الفرسان الرومان الى ان يضعوا آخر الأمر حداً لهذه الحال .

واعتبر الاتقياء من يهود فلسطين الغزو الروماني للديار المقدسة اهانةً لـ « يهوه » . فقد كان رومان ذلك العهد يعبدون مجموعة الآلهة والالاهات ، بعضها يوناني وبعضها مصري . واذا كانت عبادة إيزيس - وهي عند المصريين بمثابة عشتروت عند الساميين - بغيضة الى قلوب اليهود ، فقد أروع بها الرومان ولوعاً كبيراً . وسرت بين اليهود نبوءة تقول بأنهم سوف يستعيدون قوتهم ، وبأن رسولاً من رسل يهوه سوف يعيد مجد داود القديم . وفي السنوات التي عقب الحروب المكابية أخضعت كل إشارة وكل فآل لامتحان دقيق ، ودُرست كل حادثة غير سوية من أحداث

الطبيعة لتقرير ما اذا كان يوم المسيح قد آذن بالانبلاج . لقد ظهر عددٌ كبير من الدجالين ، طبعاً ، ولكن ارتقاب رسول يهوه ما فتىء يشغل الناس في فلسطين ويصبغ حياة اليهود فيها بصبغة خاصة .

وكان بيلاطس البنطي يحكم فلسطين عند 'مفتتح الحقبة المسيحية . ذلك كل ما نعرفه من التاريخ . والواقع ان وجود يسوع ، ابن يوسف ، وحياته إنما يأخذان في الانبثاق حوالى القرن الثالث بعد الميلاد مع أسفار الانجيليين الأربعة . وكانت عقيدة التوحيد قد تسرّبت في ذلك العهد الى شبه جزيرة العرب ، والاراضي المحيطة بالخليج الفارسي . وبقدر ما كانت حياة يسوع التاريخية غامضةً كانت حياة محمد قطعةً من التاريخ . فقد كان محمد الذي قدّم لقومه القرآن - وهي كلمة لا تعني شأن كلمة Bible غير « الكتاب » - من بيت هاشم من قبيلة قريش الحجازية . وكان في اول امره يرعى الغنم ثم تزوج من أرملة اسمها خديجة . وقد بسط سلطانه على شبه الجزيرة كلها تقريباً ، حتى اذا توفي وفق خلقاؤه الى ان يوسّعوا دنيا الاسلام - خلال قرن واحد ليس غير - فهي تمتدّ من جبل طارق الى المحيط الهندي .

وقبل عام الهجرة ، الذي يُستهلّ به التقويم الاسلامي ، شقيت بابل بعدد من الفتوح غير السامية . وفي فلسطين ، استؤنفت حرب العصابات اليهودية بعد سقوط أسرة هيروودس ، ثم تطورت سريعاً الى حرب أهلية اشترك فيها الفريسيون والصدّوقيون وبعض الجماعات الدينية المنشقة . وكان الامبراطور

الروماني فسبازيان سعيداً بأن يدع هذه الفرق المتنازعة يُفني بعضها بعضاً ، متربحاً الفرصة المناسبة للأفادة من الوضع . واخيراً استولت القوات الرومانية على اوروشليم وأطلق عليها اسم « آليا كابيتولينا » Aelia Capitolina .

وحوالي السنة ٧٠ ب. م. كان اليهود في فلسطين في حالٍ بشعة من التفكك والفوضى . وكان العرب الأيدوميون يشكلون منذ زمن طويل أقوى شعوب فلسطين غير اليهودية . وبتدمير هيكل هيرودس لم يبق لليهود مركز ديني يجمع شملهم . واستمرت حرب العصابات وامتدت الى الخارج . وفي بلاد الرافدين اجرى اليهود مذبحه ذهب ضحيتها جماعة من العرب وغيرهم ، فما كان من الامبراطور تيطس الا ان انتقم من اليهود انتقاماً عاجلاً ودمّر اوروشليم تدميراً .

وبعد قرن من الزمان شهدت فلسطين عهداً جديداً من الفتن والحروب . ولم تنقض هذه الفترة الا بعد سلسلة من المعارك الدموية . وحظّر على اليهود الباقين في فلسطين الدخول الى اوروشليم مها تكن الظروف . ويذكر ديو كاسيوس ان اليهود خسروا ٤٠٠٠٠ رجل في هذه الحروب ، عدا الآلاف الاكثر عدداً من اولئك الذين قضاوا بالابوة والجماعة . وعندما بزغ فجر القرن الثالث للميلاد لم يكن في فلسطين كلها غير قلة قليلة من اليهود . والواقع ان هجرة اليهود الاختيارية من فلسطين ابتغاء التجارة او التماساً للأمن لم تخلّف وراءها غير عدد قليل من القرى المتناثرة ، ولكن كل مرفأ من مرفأ في البحر الأدرياتي والبحر

الابيض المتوسط اخذ نصيبه من المهاجرين . ووجه آلاف من اليهود وجوههم الى بابل ، وشخص آلاف آخرون الى بلاد العرب . ولكن النفوذ اليهودي في فلسطين الذي فرض نفسه في فترات متباعدة على سامي الطرف العربي من الهلال الخصيب اصبح خيراً ماضياً .

ومن هذه الخلاصة الموجزة ، ولكن الصحيحة الدقيقة ، للاحتلال اليهودي لفلسطين ، يدرك القارئ ان دعوى الصهيونيين بان يكون ذلك النظر وطنياً قومياً لهم إنما تستند على عهد شفهي خرافي أعطاه يهوه لموسى . والواقع ان البروفسور آلبرايت ، احد كبار الثقات العالميين في تاريخ فلسطين القديم ، ينص في وضوح لا يحتمل اللبس على انه ليس في فلسطين أيما آثار يهودية ترجع الى ما قبل العهد الروماني الانطوني . قال * : « كان كثير من العلماء يعتقدون - قبل أن يبسط كول Kohl وواتزنجر Watzinger ومن بعدهما سو كينيك Sukenik نتائج أبحاثهم - أن بعض الكنئس الخربة في الجليل ترجع الى عهد المسيح ، قبل الثورة الاولى . اما اليوم فلم يبق أيما ريب في ان هذه النظرة كانت خاطئة ، وفي أنه ما من أثرٍ باقٍ ، في فلسطين ، يرقى الى ما قبل العهد الانطوني على ابعد تقدير . »

ويزعم الصهاينة أن ما يدعى « حائط المبكى » هو بقية من هيكل سليمان . وهو زعم باطل لأن الحائط غرانيتي ، وهيكل سليمان إنما بناه الفينيقيون من خشب الأرز . ويكاد يكون من

* W. F. Albright. *Archaeology of Palestine*, 1949.

الثابت اليوم، عند العلماء، ان ذلك الجدار جزء من الهيكل الذي بناه
حوالى سنة ٢٠ ق.م هيرودوس الكبير، الأيدومي*، الذي اعتنق
اليهودية لاغراض سياسية* وهكذا فإن المسجد الاقصى،
وقبة الصخرة، وقبة السلسلة هي وحدها، بين آثار فلسطين،
التي ترقى الى ما قبل الاحتلال الصليبي للبلاد.

وفي بابل عرفت السلطة السامية أياماً عسيرة، على الرغم من أن
عهودها كانت آمنةً اذا قيست بالعهود التي مرت بها فلسطين.
وهكذا خضع الكلدانيون أولاً لحكم الفرس، ثم خضعوا في
القرن الثالث قبل الميلاد لحكم الاسكندر المقدوني.

وأخيراً اخلى المقدونيون محلّ السلطة للفرس الأرساكين
الذين بنوا القصر العظيم في المدائن وأنشأوا امبراطورية 'قدر'
لها ان تخوض الحرب ضد رومة. وكانت مصر قد غدت هيلينية
بعد أن 'غودر احد قواد الاسكندر، بطلميوس، حاكماً على
الاسكندرية. واستعادت شبه الجزيرة العربية التي خضعت فترة
قصيرة لسلطان الفرس، استقلالها. وحين هزم المقدونيون داريوس
الثالث انقطعت هدية اللبان نفسها. ولكن حتى في بابل كان
السكان الكادحون الناجحون لا يزالون ساميين عرباً: زواعاً
ورعاةً وشعراء وعلماء وتجاراً لم تزعجهم سلطة الساسانيين النائية،
وكان مقرها الآن في انطاكية السورية.

وفي كل مكان كانت اديان* في دور الاحتضار. فقد ماتت
الزرادشتية، بوصفها ديانة عالمية، مع داريوس الثالث. والميثولوجيا

* المصدر السابق نفسه.

الهيلينية التي اشرفت على الموت في بلاد اليونان لم تصل إلى رومة سليمة لم تمس . وكان الرومان يستوردون آلهة جديدة من مصر وسورية ، فحلّ تموز ، ومثراس ، وايزيس محلّ أبولو وفينوس ، إلى حدّ بعيد . وفي مصر ، اعتنق الأقباط النصرانية ، في حين أحال جنود رومة الوثنية آلهة مصر وإلهاتها إلى خرافة ، في ما بين عشية وضحاها تقريباً .

وفي الجوّ المضطرب الذي عاشت فيه رومة المتداعية إلى السقوط اضطهدت النصرانية وأخصبت بسبب من هذا الاضطهاد نفسه . ودخل في الدين الجديد آلاف من الجنود والمهاجرين الأوربيين والبلقانيين . ولكن بالرغم من كل ما حققته النصرانية من تقدّم فقد ظلت الحقبة على العموم غنوسية لا أدريّة .

وكان تأثير الإسلام في عالمٍ مثل هذا متردّدٍ مترنحٍ حاسماً جداً . كانت الامبراطوريات القديمة قد تقوضت . وكان الفرس قد حلّوا محلّ اليونان ، وحلت رومة محلّ امبراطورية الاسكندرية . ولئن ألحق الاسكندر العروش الشرقية بامبراطوريته ، لقد انحصرت اعظم انتصارات رومة في اوروبا نفسها . ولم تعد مصر ، بعد ان جثم على حدودها عدوّ قوي ، دولةٍ يُخشى بأسها . وفي بيزنطة ، كانت الامبراطورية الشرقية قد جنحت إلى الأفول ، وكانت عظمتها قد انتهت إلى ان تصبح جوقاء بالفساد .

ومن شبه جزيرة العرب كان ينطلق إعصار . كان محمد قد هاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢ م . وكان قد انتصر على

الوثنيين في موقعة بدر (رمضان سنة ٦٢٤) فدخل العرب في الدين الجديد افواجاً افواجاً .

ومن ذلك الحين حتى سنة ٦٣٢ م. التي توفي فيها محمد تم توحيد الحجاز بعد أن دلت العقبات القائمة دون ذلك واحدة إثر واحدة . وفي هذا العهد نشبت مناوشات كثيرة بين محمد واليهود بسبب من تأمر هؤلاء مع عدد من القبائل الوثنية عليه . وكان من نتائج ذلك ان مُزقت ثلاث عشائر يهودية ونُفقت من الحجاز .

وفيما كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية وبقايا رومة نفسها تحلم بالسultan المستعاد كان محمد قد صهر العرب في شبه الجزيرة الكبرى في بوتقة إخاء جديد ذلك بأن اوثق الروابط العربية كانت تقوم ، من قبل ، على اساس من القبيلة والعشيرة . فلما بزغ فجر الاسلام تسامت عقيدته فوق هذه النظرة الضيقة واصلت ان المسلمين كلهم اخوة . وفجأة نعمت بلاد العرب كلها لا بصلة نسب جديدة ، وبأيمان جديد فحسب ، بل بطريقة في الحياة جديدة بالكلية ايضاً . وليس في الاسلام هياكل مقدسة ، ولا مذابح كنسية ، ولا كهنوت . فالمسلمون يجتمعون في المساجد حيث يصلون ويتعلمون ويتناقشون . وأئمتهم رجال دين وقادة في وقت معاً . انهم يعلمون رعيتهم الفروسية ، ويحاضرونهم في القرآن ، وينفذون الشريعة المدنية كما نص عليها كتابهم المقدس وفي غضون عشر سنوات ليس غير غدت العربية السعيدة ، او ارض الملوك ، ثيوقراطية دينية كل الناس فيها متساوون ، تحت راية الله .

وخلف النبي العربي ، بعد وفاته ، أبو بكر الصديق . وكانت حروب الردة ، ولكن أبا بكر وفقى الى القضاء على الفتنة في سرعة بالغة . فلم ينتعش عهدُه القصير (٦٣٢ - ٦٣٤) حتى غدا سيداً على شبه الجزيرة كلها .

وبعد موت الخليفة الأول انطلق العرب الى خارج الجزيرة ، ففتحوا سورية والعراق وفارس ومصر وليبيا وانشأوا قوة بحرية ذات شأن .

ثم انهم اندفعوا ، في اتجاه الشرق ، الى سمرقند ، بل الى حدود الصين . وغزوا الهند واطافوا الى امبراطوريتهم باكستان الحالية وافغانستان وجزءاً كبيراً من كشمير . وفي اتجاه الغرب انطلق الفرسان العرب وقوات الاحتلال التي نقلها الاساطيل البحرية من ميناء قرطاجة (قرب تونس اليوم) وهبطوا ارض اسبانية سنة ٧١١ م . وغزا العرب فرنسا ايضاً ، ولكنهم هزموا آخر الأمر في تور ، غير بعيد جداً عن باريس ، على يد ابن غير شرعي لـ « بيين هيرستال » الزعيم الرايني يدعى كارل ، ومن ثم عرف بشارل مارتل (شارل المطرقة) .

ومن ذلك الحين ارتدت جيوش العرب والمسلمين ، شيئاً بعد شيء ، الى اسبانية . وحكم العرب تلك البلاد كلها ، طوال قرون عدة باستثناء جزء صغير منها . وفي اواخر القرن الثامن كان الاسلام يسيطر على بحار العالم المعروف آنذاك وعلى شواطئ البحر الابيض من اعمدة هرقل (جبل طارق) الى الجبال العالية المتاخمة لبلاد التيب . وكان العباسيون قد خلفوا الامويين ،

واقاموا عاصمتهم في بغداد .

ومنذ انشاء بغداد ، المدينة المدوّرة ، سنة ٧٣٢ الى منتصف القرن الثالث عشر وعالم الثقافة متمر كزّم في الديار الاسلامية . ففي أيما مكان آخر من اوروبة وآسية لم يكن غير جثة «السلم الروماني» البالية . وفي الهند والصين ، وفي مكسيكو وبيرو ، تقاثلت فرق وطوائف وتقلّست ثم خضعت لسلطان شعوب مجاورة تنزع الى الحرب اكثر بما تنزع الى الفلسفة . اما في سمرقند وحلب ، وفي دمشق وبغداد فنهضت الجامعات واقبلت وفود الطلاب من الشرق ومن اوروبة ليدرسوا الفنون والعلوم التي ما كانت تُدرّس في أيما مكان آخر .

وما الذي حلّ باليهود خلال هذه القرون ؟ كان معظم الذين لم تتسلّمهم الامم الاخرى يقيمون في فلسطين . فقد كان الحكم البيزنطي اقلّ خشونة من الحكم الروماني ، وكان عدد اليهود اقلّ من ان يساعدهم على تحدّي سلطان الدولة . وهكذا فتحت ابواب اوروشليم في وجوههم ، ككرةً اخرى ، وانصرفوا الى حراثة الارض في قراهم ، وبنوا عدة كنّس واعتصموا بمجبل السلم .

اما خارج فلسطين فان اليهود المتناثرين الذين اتبعوا غرائزهم التجارية وقصدوا الى شواطىء افريقية الشمالية فأقام بعضهم هناك ولحق بعضهم بالراية الاسلامية الى اسبانية والبرتغال . واستقر كثير من اليهود في بغداد حيث درس اولادهم مع الفرنجة والايطاليين واليونان في جامعة «المستنصرية» . في حين نزل آخرون ربوع

اليمن وإيران والهند .

وفي الشمال كسبت اليهودية موطناً جديداً : ففي إمارة « كييف » القوطية القائمة على الدنيبر وعلى شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين كان برايرة الروسية - المنهكون حديثاً بتجارة ازدهرت سريعاً بعد أن سيطر المسلمون على الطرق التجارية بين الصين والهند والغرب - قد ضاقوا ذرعاً بأديان ليس لها جذور محلية .

وكانت إحدى هذه القبائل ، الحزر ، تقيم في الشواطئ الغربية من بحر قزوين ، وكانت ذات عددٍ وبأس . وإذا كان المسلمون يحيطون بها من جانب (في فارس) والمسيحيون من جانب (في بيزنطة) فقد أبى زعمائها أن يغضبوا إياً من الفريقين . حتى إذا اكتشفوا ديانة ثالثة تدعى اليهودية اتخذوا من يهوه الهأ لهم ، وأعادوا تسمية وعياهم الذكور وفقاً للنوع والألقاب الواردة في التوراة .

وكان السلاف الكييفيون الخاضعون لسلطان فلاديمير بعيدين عن شقي الرحى - الهلال والصليب - حتى إذا كرهوا آلهتهم القديمة وملكوها لم يتعين عليهم التزام الحسيمة الكاملة . وتذهب الأخبار إلى أن جماعة من الحزر الداخلين حديثاً في اليهودية ، والذين انتهوا إلى أن يصبحوا حاخامين ، وفدوا على كييف ليقتنعوا السلاف باعتماد دين يهوه فسألهم الأمير الروسي :

« أين بلدكم ؟ »

فأجاب الحاخامون :

« اوروشليم مدينتنا . »

فقال فلاديمير :

« ولماذا لا تعيشون في مدينتكم ؟ »

وأوضح الاحبار ان الهمم يهوه غضب عليهم وطردهم من ديارهم وعندئذ قال فلاديمير إنه لا يستطيع ان يطلب الى الشعب الروسي الايمان بالله قد يفقد اعصابه في كل لحظة ويطردهم من اعظم واغنى بلد في العالم . *

وإثر هذا الاخفاق اقبلت على كييف وفود اسلامية وبيزنطية . وأخيراً اختار فلاديمير النصرانية ديناً لشعبه لأن امرأته ، فيما يقال ، كانت بيزنطية . وإياً ما كان فقد تقبل ابناء كييف المنتصرون حديثاً الصليب فدحرجوا تمثال « بيرون » (الله العواصف) الذهبي الفضي الضخم الى نهر الدنيبر والقوه في مياهه الموحلة . وفي ما هو اليوم كازا كستان السوفياتية الغربية قدر لليهود الحزر غير الساميين - وكانوا حتى قبل دخولهم دين يهوه قومياً عنيدين عدوانيين ونجاراً بارعين - ان ينتشروا في اوروبة ، وان يطالبوا آخر الامر بفلسطين وطناً قومياً لهم ، وهي ارض لم يعرفها اسلافهم القدماء على الاطلاق .

وفي الوقت نفسه كانت الغيوم قد اخذت تتلبد فوق « دار الإسلام » . ففي اوروبة حوّل الصراع بين الكنيسة والدولة الى حرب مقدسة ضد المسلمين المسيطرين على فلسطين . وانما خاض نبلاء اوروبة غمار هذه الحرب بدافع من القلق والأمل في الغنيمة

* Hyde, « Russia, Then and Always » . 1944 .

بقدر ما خاضوها بدافع من الحمية الدينية، فغادروا بلدانهم واقطاعاتهم ورهنوها في كثير من الاحوال لدى الكنيسة ، ليحملوا الصليب ويفدوا الى الارض المقدسة . وهكذا نشبت حروب دامية باهظة النفقات لم يُقد منها احد من الناحية المادية غير حاملي صكوك الرهن . ومن ناحية ثانية ، كان لهذه الحروب فائدة كبيرة ، لأن الصليبيين العائدين الى اوروبة حملوا معهم أنماطاً من الثقافة عجلت بخروج الغربيين من دنيا القرون الوسطى .

ونكب العالم الاسلامي ، بالاضافة الى الحروب الصليبية (١٠٩٧ - ١٣٥٠) بالغزو المغولي . ففي سنة ١٢٥٨ حاصر هولاء كوف بغداد واستولى عليها بعد ان ذبح ما يزيد على ثمانين الف بغدادي وُقْتِل الخليفة العباسي . ومن سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٥٠٠ حكم المغول بغداد والعراق ، ولكنهم كانوا قد غدوا مغولاً متعربين . وفي عام ١٥١٦ فتح العثمانيون خرائب «دار الاسلام» . وعلى الرغم من دخولهم في الدين المحمدي لم يوفقوا الى اعادة الثقافة الاسلامية الى سابق مجدها . وطوال اربعمئة عام حجب العرب ، وحجبت علومهم وآدابهم ، بدروع الاتراك - وهم شعب عملي يعوزه الخيال - الكشافة القاسية .

وثار العرب غير مرة على الاتراك . ولا تكاد توجد مدينة عربية كبرى ليس فيها ساحة شهداء كانت المشائق التركية فيها وسيلة سرمدية الى إطالة اجل الحكم العثماني الفاسد . وايكن العرب لم يلمحوا بصيداً من أمل إلا عند

اندلاع نار الحرب العالمية الاولى . وعندئذ وجهت بريطانيا آثاريًا
مثاباً يدعى توماس لورانس - وكان الجيش قد ابى قبوله لقصر
قامته - لكي يراقب اعمال الفرسان العرب الذين كانوا يقضون
- تحت زعامة الامير فيصل ابن الشريف حسين - مضاجع القوات
التركية في الحجاز الغربي .

وأعجب لورانس بالمعنوية العربية وأقنع الشريف حسين
بالتحالف مع بريطانيا على ان تكفل هذه الاخيرة قيام دولة عربية
مستقلة بعد الحرب . وكان لورانس خالي الذهن بالكلية ، آنذاك ، من
اتفاقية سايكس بيكو السرية بين لندن وباريس ، تلك الاتفاقية
التي قسمت الاراضي العربية الى منطقتي نفوذ احدهما بريطانيا
والاخرى فرنسية . وطرد العرب القوات التركية من فلسطين
وسورية والعراق ، تساعدهم في بعض الاحيان ، قوات بريطانيا .
ولكن ما إن اختار الشريف حسين ابنه فيصلًا لعرش سورية
الكبرى في دمشق حتى كانت عصبة الامم قد عهدت الى فرنسة في
الاشراف على سورية ولبنان . وفي تموز ١٩٢٠ أخرج الجنرال
غورو ، المقطوع إحدى الذراعين ، تدعّمه الدبابات الفرنسية ،
القوات العربية من دمشق . أما فلسطين وشرقي الاردن والعراق
فتولت بريطانيا الوصاية عليها .